



خلال تغطياتي الإعلامية للجهاد الأفغاني في فترة الثمانينيات التقى مستشار الرئيس الفرنسي جاك شيراك لمكافحة "الإرهاب" ودار حديث عن الجماعات الجهادية السننية والشيعية، وسألته من باب الفضول لماذا تعاملون مع الجماعات الشيعية ولا تعاملون مع السنوية، فردَّ علي أما الأولى فلديها مرجعية في طهران ودمشق تستطيع أن تضبط تحركاتها، بينما الحركات السنوية ليس لديها مرجعية واحدة، وحين تقدم إحداها تقدماً طفيفاً تبدأ بتهديد البيت الأبيض والوعد بتحرير الأقصى، فكيف يمكن التعامل معها؟!

ادركت طهران منذ البداية أهمية الأرض فعززت قوتها بعد الثورة الإيرانية، وحشدت أتباعها ومؤيديها من الطائفة الشيعية في أنحاء العالم، فكانت الحوزات الشيعية بقم وطهران مقرات لتصدير الثورة الإيرانية، وبينما كان الحوثيون وشيعة الخليج وأفغانستان وباكستان وأفريقيا الوسطى يتذدقون على تلقى تعاليم الثورة الإيرانية، ثم تلقي التدريب في معسكرات حزب الله ومعسكرات سورية، كانت الحركات الإسلامية مطاردة وملحقة في أوطانها، أما بعض الأنظمة العربية والإسلامية فإما كانت تتقارب إلى طهران أو تقف عاجزة عن مواجهتها بسبب حالة الاحتراط الداخلي التي تعيشها مع شعبها أو معارضتها السياسية، وكانت مثل هذه الحالة تصب في الطاحونة الإيرانية.

وفي ظل الفقر إلى المظلة السياسية الحكومية القادرة على توظيف الشباب وحماسهم وتحركاتهم خدمة لمشروع سني موحد، ويتفشى حالة اللاثقة بين الأنظمة والشعوب التي انفجرت لاحقاً على شكل تسونامي الربيع العربي، ظهر حجم البون الشاسع ليس بين الأنظمة والشعوب فحسب، وإنما بين الحركات الإسلامية المعتدلة التي تسيّدت المشهد الإسلامي على مدى عقود وبين جيل شبابي لا يثق بهذه الحركات بل يراها المسؤولة عما وصلت إليه الأوطان، وأنها الوجه الآخر لأنظمة المستبدة، كونها دعمتها بشكل أو بآخر، أو صمتت عليها، أو لم تقاومها ..

المرجعيات السياسية والثقافية والإسلامية في العالم العربي للأسف إن لم تكن جزءاً من الأنظمة فقد عجزت على مدى عقود

في أن تكون بديلاً عنها، وهو ما أفقد الشباب الثقة بهذه المرجعيات، ولذا سعى جيل الشباب من الحركات الجهادية المتمردة إلى تقديم مرجعياته الخاصة به، فكانت مرجعيات حديثة الأسنان ومجهولة مجتمعاً لكنها مقبولة للطبقة المتمردة ليس لعلميتها وتبصرها بالعلم، وإنما لأنها تخدم أجندته المتمردة على النظام بكلفة أشكاله وتفرعاته، وهو ما زاد الشُّفَقَةَ بين معمكري دفع المعسكر السنوي ثمنه، إذ إنه غداً "ظُلُماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ"، فهو خلاف بين الحكومات والمعارضة، وداخل المعارضة ذاتها إسلامية وغير إسلامية، وبين المعارضة الإسلامية المعتدلة وبين حركات جهادية متمردة رأت في المشروع التصالحي والديمقراطي فشلاً اتضحاً برفض العالم نتيجته في الجزائر وفلسطين ومصر وغيرها، بالمقابل كان المشروع الشيعي تجسده مرجعية شرعية وسياسية واحدة، وكان يتقدم مجتمعاً عبر تقديم خدماته لكتابه أتباعه، في حين كانت معظم الدول السنوية في وادٍ وشعوبها في واد آخر، وكانت الحركات الإسلامية المعتدلة في غالبيتها تصب في صالح المشروع الإيراني، حتى وجدت نفسها فجأة على مفترق طرق، فإما أن تكون مع أمتها السنوية أو مع مصالحها الإيرانية، ودخل الجميع في احتراب عسكري أو سياسي أو شرعي لا فرق وهو ما عزز المشروع الإيراني أكثر فأكثر..

ثمة مثال مهم ينبغي ذكره في التجربة الأفغانية وهو أنه حين تقاطعت مصالح الدول العربية مع الحركات الإسلامية في طرد السوفييت من أفغانستان أمرت وحدة المشروع بشكل لافت في طرد الشيوعية من أفغانستان، فتقاطر الانصار العرب وغير العرب لنصرة الشعب الأفغاني وقدم الشيخ الشهيد عبد الله عزام مثلاً رائعاً في تقدير مشاركة الشباب بأن يكونوا ضمن الأحزاب الأفغانية وألا يخالفوهم حتى في قضية رفع الأيدي بالصلوة كون أتباع المذهب الحنفي لا يرفعون أيديهم في الصلاة، وهو ما جعل الشعب الأفغاني يستذكر تلك الأيام الجميلة حتى الآن في مشاركة واستشهادآلاف الشباب العربي نصرة لهم، لكن بالمقابل حين افترقت المصالح تشتت المشروع وتفرق القوم.

بالعودة إلى ما ذكرته في البداية نقلًا عن المستشار الفرنسي فإن افتقار المشروع السنوي إلى مظلة حكومية سياسية، قادرة على حمايته من آلة القتل والتدمير والخراب الهمجي في العراق والشام واليمن على مدى سنوات، دفعه إلى التلطي والاحتماء بجماعات إسلامية متمردة قد توفر له بعض أشكال الردع، وزاد الطين بلة عجز الدول السنوية حتى على توفير الحماية لملايين المهاجرين السوريين وغيرهم من عادات البرد والثلج، وهو ما زاد حالة الإحباط لدى الشعوب في عجز الدول عن مواجهة المشروع الإيراني الذي يستهدفهم في دول عددة..

أخيراً مقاربة قد تكون قاسية ولكن قد تتطبق على ما يجري في الشام والعراق، فإن نظام نجيب الله الشيوعي الأفغاني لم يسقط إلا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بعامين.. فهل سيسقط النظام المواليان لإيران بعد انهيار الأخيرة خاصة مع انهيارات أسعار النفط الذي ضرب اقتصاد البلدين في مركز عصبه؟!.

المسلم

المصادر: